دار الوطن
١٩٨

أصناف الناس في قضاء الليل

إعداد
سعيد بن محمد بن شطيف

مركز خدمة المتبرعين
الرياض - ص.ب: ٣٣١٠ - ت / ٤٧٩٢٠٤٢ - ف / ٤٧٢٣٩٤١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

* **أخي الكريم:** لقد وجدتك دائم الشكوىٰ، وجدت شكواك على فلتات لسانك، وعلى جلد كتابك، وفي كراسة المسودة، حتى إنه لم يسلم من شكواك جدار المدرسة ولا باب دورة المياه- أكرمك الله -.

* **أخي الكريم:** وجدتك دائم الشكوى من الليل!! فقد كتبت ذات مرة: ليلي عذاب...!! وفي أخرى: سواد الليل جلاب الهموم...!!

* **أخي الكريم:** في أول الأمر تعجبت من شكواك من الليل وتأذيك به، ثم عزمت على البحث والاستقصاء، فنظرت في حال بعض شبابنا الذين نأمل منهم خيراً كثيراً لأمتنا، ونرجو دائماً أن يكونوا مؤهلين للنهوض بها إلى مجدها وعزها المنتظر، لكن للأسف..

فجعت وصعقت من هول ما رأيت...!! أتدري ما رأيت..؟!

إنني رأيت من ليل شبابنا عجباً، رأيت من شبابنا من قضى ليله في الغناء والطرب، أداءً وسماعاً، وربنا تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان: ٦]. سُئِل ابن مسعود رضي الله عنه عنها فقال: «الغناء»، وكذا قال ابن عباس وجابر وغيرهم، ونبينا ﷺ قد قال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرَّ والحرير والخمر والمعازف».

* **وطائفة أخرى** قضت ليلها في خمر أذهبت به عقولها، وجلبت به غضب ربها، فقد نهاهم عن الخمر فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، فيا ترى وقد سمع هؤلاء الآية، هل سيقولون انتهينا.. انتهينا..؟! إنه ظننا بكل مسلم!!

* **أخي الكريم:** ورأيت آخرين عكفوا على مدمر الأخلاق، وقاتل الأوقات، عكفوا على الفضائيات والمسلسلات، يتابعونها، فنظروا إلى الحرام والله سائلهم عما نظروا إليه ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]،

وأضاعوا أوقاتاً والله سائلهم عما أضاعوا «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟!.» [رواه الترمذي] ثم لا تنس أخي الكريم ما يترتب على ذلك من قتل الأخلاق، وتسميم الأفكار، ونشر الفاحشة في الذين آمنوا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

* **أخي الكريم:** ثم انتقلت إلى موقع آخر... فوجدت طامة كبرى، ومصيبة عظمى ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾، وجدت جماعات من إخواننا قد انشغلوا بأكل أعراض المسلمين، وهتك أستارهم، وعيب خيارهم، وجدتهم يسخرون ويستهزئون، وكأنهم عن قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] غافلون..!! أو كأنهم لم يعلموا حديث رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» [رواه أحمد وأبوداود].

* **ثم انتقلت إلى آخرين** فوجدتهم قد قربوا ألعاباً أضاعوا بها أوقاتهم، والله سائلهم عما أضاعوا، وأفنوا بها أعمارهم، والله سائلهم عما أفنوا... وجدت منهم من أدمن الشطرنج، وآخرين الكيرم، وآخرين... ثم وجدت طامة أعظم وأشد، وجدت لعبة تسمى «بلاس تيشن» (Plus Teisan). فكم من الوقت أضاعت، وكم من الفكر والتفكير استنفذت، والنتيجة مخزية ولا تعجب، فأعداؤنا يريدون منا أكثر ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧]. ولقد تأملت أخي الكريم في تلك الألعاب كلها فوجدتها تجمع مضاراً متعددة أذكِّرك ببعضها:

* **أولاً:** استحواذها على القلب والعقل لمدة طويلة؛ فتصده عن ذكر الله وعن الصلاة حتى ربما لعب بعضهم أول الليل ولم يقم منها إلا بعد طلوع الشمس ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [المجادلة: ١٩].

* **ثانياً:** أن آثارها تبقى في النفس بعد انقضائها حتى إنها لتعرض له في صلاته بل وفي المرض وعند الموت، فمنهم من يقال له: قل لا إله إلا الله. فيقول: حكم صن أربعمائة.

* **ثالثاً:** أن اللاعب بهذه الملاهي لا يبالي بكل من دخل عليه لشدة حبه لها،

ويحصل فيها حلف كثير وسب ولعن، وقد تلاعب بهم الشيطان وسوّل لهم بأنها تقوي العقل، وما هي إلا محض خيالات وأوهام بُلي بها من أعرض عن ذكر الله، فذرهم في غفلتهم يعمهون.

* **رابعاً:** أن هذه الملاهي من عمل الشيطان، وقد شبه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لاعبيها بعباد الأصنام، فعندما مرَّ على قوم يلعبون بالشطرنج تلا عليهم قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وروي أنه قلب الرقعة عليهم.

* **خامساً:** ومن مفاسدها نشوء العداوات بين لاعبيها بل تصل أحياناً إلى الضرب كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

* **أخي الكريم:** ولا تتصور كم تعبت نفسياً وضاق صدري وضاقت عليّ الأرض بما رحبت لهول ما رأيت...

رأيت من قام وقد نامت العيون، قام آخر الليل، فما كان مني إلا أن قلت: يذهب يتوضأ.. إلا أنني فوجئت بأنه أخرج نوتة الهاتف!! **قلت:** يذكِّر زميلاً بموعد القيام.. لكن فوجئت بأن الصوت الذي تكلم به كان خافتاً.. **قلت:** أراد ألا يزعج أخاه.. تأوه، **قلت:** لأحوال أمته، اقتربت منه فسمعت ما أستحيي من ذكره لك هنا، كانت لي صدمة، هبطت عليَّ كالصاعقة، لكن صبرت لأرى نهاية المطاف، وجدتها أحاديث عاطفية ومغازلات غرامية، **قلت:** مع زوجته، فاستحييت وهممت بالخروج، فوجدته يعدها بالزواج، **قلت:** أكمل المشوار، أغلق السماعة من تلك بعد حديث طويل ـ بصوت خافت وآهات متكررة، دبج ذلك كله بمقطوعات شعرية ـ **قلت:** إذن يرجع لينام، لكن فوجئت بضحكة عالية قطعت عليّ ذلك الصمت الرهيب والسكون العجيب، إنها ضحكته، لماذا؟! ضحكتُ عليها، لماذا؟! أتسلى، هممت بالخروج وحسبت المهزلة قد انتهت، أمسك بالسماعة وهاتَف أخرى، وأعاد نفس المشهد، وهكذا بات يتصفح النوتة رقماً رقماً.. حتى طلع الفجر، **قلت:** إذن يتوضأ للصلاة.. لكن فوجئت بانكبابه في فراشه... وهكذا الشيطان يهرب من الأذان، ساءلت نفسي: أين يذهب هذا من قوله تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

* **أخي الكريم:** وهذا صنف آخر من الشباب وجدتهم في جمع

يتضاحكون، رفع بعضهم سماعة الهاتف، ضرب رقماً بسرعة، قلت: إذن يستدعون صديقاً ـ كان الوقت متأخراً ـ ردّ صاحب الهاتف فكالوا عليه سيلاً من الشتائم ثم أغلقوا السماعة، علا الضجيج بينهم، وأعيدت الكرّة، وهكذا هذا ليلهم، إنهم «السادة المزعجون» وإني أتساءل: ألم يخش هؤلاء دعوة مظلوم آذوه وأطاروا نوم عينيه؟! ألم يقدروا شيخاً كبيراً أو مريضاً آلمه المرض واشتد به الألم فكلفوه السير إلى سماعة الهاتف ليسمع ذلك التهكم؟! أما تذكر هؤلاء قبل هذا كله أن الله فوقهم وهو مطلع عليهم وشاهد؟!

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلـوت ولكـن قـل علـيّ رقيـب

أخي الكريم: ثم وقفت عند آخر مجلس من تلك المجالس، إنه مجلس قوم هم أخفهم، ولكنهم في غفلة ودعة، تركوا ما اشتد في طلبه الصالحون، وشمر لأجله المشمرون، وجدتهم قد انشغلوا في ليلهم بأمور من المباح، ممازحة وحديث من حديث تقطيع الأوقات، فهؤلاء ـ وإن كانوا خيراً من سابقيهم ـ إلا أنهم أضاعوا وقتاً ولكن أي وقت أضاعوا؟! أضاعوا الليل ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

حينئذ ـ أخي الكريم ـ وقفت مع نفسي، وقلبت صور هذه الصفحة التي طالت شكوى أصحابها من الليل، وغضبت عليه، ورأت أنه جلاب الهموم وموطن عذاب النفوس، وعرفت السرَّ في كونه عذاباً عليهم، عرفت لماذا استثقلوه وكرهوه؟ لأنهم بمعصية ربهم أشغلوه..!!

هنا قف!!

* **أخي الكريم:** إنني على يقين أن هؤلاء لو سهروا كما سهر المؤمنون في مناجاة ربهم لما تطاولوا الليل ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦]، إن الجميع اشتركوا في السهر لكن اختلفوا في العمل، فالمؤمنون ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، وهؤلاء باتوا ليلهم في معصية ربهم، فهل يستوي الفريقان؟ ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. إنهم جزماً لا يستوون.

* **أخي الكريم:** هؤلاء العابثون لم يقتدوا بإمام المتقين محمد ﷺ الذي قام من الليل حتى تفطرت قدماه ليكون عبداً شكوراً.

إن هؤلاء كرهوا الليل وطوله؛ لأنهم لم يسهروا في حراسة ثغر من ثغور الإسلام فيكونون ممن قال فيهم عليه الصلاة والسلام: «عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» [رواه الضياء في المختارة].

إن هؤلاء لم يسهروا كما سهر عثمان رضي الله عنه يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً.

إن هؤلاء اشتدت عليهم ظلمة الليل حتى اسودت قلوبهم؛ لأنهم لم يتدارسوا فيه علماً كما كان أبو هريرة وخلفه من علماء الأمة يفعلون.

إن هؤلاء لم يسلكوا مسالك الصالحين في الليل، ولم يجربوا يوماً تلك المناجاة العظيمة بينهم وبين ربهم عندما يناديهم في ثلث الليل الآخر «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» [متفق عليه].

وأخيراً...

* **يا شاباً** أعجبته نضرته، وازدانت له الدنيا بقوته، اجعل عينك إلى الآخرة ناظرة، ولا تغرنك الدنيا فهي غرّارة، وأشغل نفسك بطاعة ربك قبل فجأة النقمة، وتذكر «وشاب نشأ في طاعة الله» وكن من الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

* **ويا شيخاً** جاءه النذير بالشيب، وأعذره الله بأن بلغه الستين، هيء لنفسك قبل ارتحالك موطناً، واتق الله، فأعمار الأمة من الستين إلى السبعين وأقلهم من يجاوز ذلك، وكن من الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

* **أخي الحبيب:** عندما يمضي ليلنا في طاعة ربنا لا نراه طويلاً؛ لأننا نكون حينئذٍ في مناجاة لا تمل، وحديث لا يستطال، فبربك هل بلغ ذلك المضيعون؟!.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد.

* * *